دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	برج يوسف داي بالبطان : التأثيرات العثمانية فى عمارة المنتزهات بأحواز مدينة تونس خلال القرن السابع عشر
المصدر:	مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
الناشر:	جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2
المؤلف الرئيسي:	بالحاج، بية عبيدى
المجلد/العدد:	ع45
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2016
الشهر:	جوان
الصفحات:	97 - 120
رقم MD:	822904
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الفن المعمارى، برج يوسف داي، العمارة العثمانية، التراث المعمارى، تونس
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/822904

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

برج يوسف داي بالبطان
التأثيرات العثمانية في عمارة المنتزهات بأحواز مدينة تونس خلال القرن السابع عشر

د.بية عبيدي بالحاج
المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر- منوبة
مخبر الآثار والعمارة المغاربية- منوبة

ملخص:

لقد ساهمت حركة البناء والتشييد التي بدأت مع حكم الدايات في تسرّب التأثيرات المعمارية وكذلك الفنية بين الطابعين العثماني والمحلي. واستمدت العمارة خلال هذا القرن طابعها من الموروث المحلي وتحديدا الحفصي بالموازاة مع التأثير الأندلسي والعثماني وبعض التأثير الإيطالي، وهو ما أضفى عليها التنوّع في مظاهرها وأشكالها. وقد كان لمختلف هذه المشارب الثقافية والفنية دورا في تغيير ملامح الفن السائد وتوجهه في خط سير جديد ليظهر فن معماري مخضرم يجمع بين موروث عريق ومرجعية فنية جديدة.

من هذا المنطلق تأسست عمارة القصور بأحواز مدينة تونس وريفها المجاور خلال الفترة العثمانية منذ بداية القرن السابع عشر حيث أخذت تظهر المنشآت المعمارية العثمانية غير العسكرية. وقد أعان على ذلك استتباب الأمن في البلاد وقدوم المسلمين الأندلسيين إلى تونس وفيهم كثير من المهرة والمعماريين وأصحاب الصنائع والزخرفة والبنّائين. فاستغل الحكام العثمانيون مواهب هؤلاء لتعمير أرجاء عديدة حول مدينة تونس. ويعد برج يوسف داي الواقع بسهول مجردة السفلى أولى هذه العمائر التي تمثّل نقطة تحوّل هامة في هذا المجال. ويبسط هذا المعلم طورا هاما في تحوّل العمارة يتوضّح فيه أسلوب الابداع والتجديد مع الافادة من استخدام العناصر المحلية لتكتسي هذه العمارة حلّة جديدة غير مألوفة تختلف عن العمارة الحفصية التي تتصف بالتحصين والتقشف. وظهرت ملامح جديدة في النقوش الزخرفية، فضلا عن الهندسة والتخطيط. وقد انسجمت هذه التأثيرات الجديدة بشكل واضح مع العناصر المحلية وشكلت نموذجا معماريًا فريدًا.

كلمات مفاتيح: عمارة، أبراج، الباطان، الجديدة، يوسف داي، وادي مجردة، قصر، فبريكة الملف، مصنع الشاشية، قنطرة.

Abstract

Bordj Yusuf Dey in el-Bathan: the Ottoman influence in the architecture of resorts around Tunis in the seventeenth century

Towards the end of the sixteenth century, the Turks seized the Regency of Tunis and restored prosperity and security. Thus, a stage of reconstruction and embellishment of the city of Tunis and its surroundings begins. At the beginning of the 17th century, the reception of Andalusian refugees in Tunisia still contributed to the enrichment of the capital and its countryside where they were divided. As a result, Yusuf dey (1610-1637) proved to be a great builder and was responsible for the construction of several civil and religious monuments. In the same way he built a remarkable Bordj adjoining to the Andalusian dam of el-Bathan near Jedeida. This Bordj marks an important step in the transformation of architecture where the new influences were mixed with local elements and formed a unique architectural model. This is an excellent witness to the evolution of domestic architecture and to the various Ottoman artistic influences that have contributed to the transformation of domestic architecture in Tunis.

Keywords : Ottoman architecture, Bordj, palaces, Tunis, Yusuf Dey.

مقدمة

شهدت مدينة تونس خلال القرن السابع عشر حركة عمرانية واسعة. وانتشرت في أرجائها العديد من المباني العثمانية

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

من مساجد وفنادق وحمامات وقصور وأسواق وغيرها من المباني ضمن النسيج العمراني للمدينة. وقد أخذت هذه العمارة شكلا جديدا يختلف في بعض تفاصيله عن الطراز المعماري الذي كان سائدا قبل الفترة العثمانية؛ فظهرت المجمعات المعمارية التي تميزت مبانيها باللمسات المحلية في الإضافات والزينات الداخلية. ثم توسعت هذه الحركة لتطال مجالات جغرافية خارج مدينة تونس في مرحلة لاحقة وتشمل مدن دواخل البلاد. ويعد برج يوسف داي من بواكير العمارة العثمانية خارج أسوار مدينة تونس خلال القرن السابع عشر. كما يمثل فاتحة سلسلة من الانجازات المماثلة التي ستقام تباعا على امتداد ثلاثة قرون.

واخترنا دراسة هذا البرج لإبراز بدايات التأثير العثماني في العمارة المحلية من حيث التصميم الفنية بالمقارنة مع الفترات السابقة.

وسنحاول في هذه الدراسة أن نعطِيَ لمحة تاريخية عن ظروف بناء هذا البرج السكني ووصفا فنيا عاما له ممّا سيمكننا من كشف بداية تسرّب خصائص معمارية جديدة وتسليط الضوء على الانقطاع والتواصل في صيرورة معمار هذا المبنى وزخرفته مع أبراج الفترات السابقة لاستخراج التأثير العثماني في فن البناء.

سنسجّل ما عرفته مصادر التأثير في معمار هذا البرج وزخرفته من تنوّع. فقد ساهم هذا البناء في إنشاء نموذج فريد من أشكال القصور الريفية. تداخلت فيه تأثيرات محلية موروثة عن الفترات السابقة وتأثيرات قدم بها الوافدون من الأندلس في بداية ذلك القرن، والتي تضافرت كلّها لتشكيل أثر فني لايزال قائما.

I - يوسف داي وظهور العمارة العثمانية خلال القرن السابع عشر

حملت بدايات القرن السابع عشر في مطاويها الكثير من الأحداث والتغييرات لإيالة تونس، فقد تميزت المرحلة الأولى للحكم العثماني بعدم الاستقرار والثورات المتكرّرة للجند حينا وللقبائل حينا آخر. وأبرز مستجدات المرحلة الجديدة نشوء نظام جديد داخل الإيالة العثمانية الفتية وهو نظام الدايات واكتمال دواليب الحكم فيها. واتسمت بدايته التي تتفق مع ولاية عثمان داي (1594 – 1610) بكونها مرحلة

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

التوسع والهيمنة وتعزيز السلطة الجديدة بالبلاد. وكان هذا الداي أول من أقرّ النظم الإدارية وألجم القبائل ونعمت المدينة في عهده بالأمن والاستقرار والانتعاش الاقتصادي وسار في أهلها سيرة حسنة وأخضع دواخل البلاد واستخلص منها الضرائب. وشرع في إعادة تحصين المدينة وإصلاح عمرانها المتلاشي، ودفعه ذلك إلى إنشاء أبنية كبيرة محصنة وقوية لها أبراج وأسوار قوية، ولكنها بسيطة، ولم تمل أبدًا إلى الزخرفة والتزيين.

خلفه بعد وفاته يوسف داي (1610 – 1637) الذي مضى قدما على نهج سلفه في سياسة إعمار المدينة التي أنهكها الاحتلال الاسباني والغارات المتعددة وأتلفت جزء هاما من نسيجها العمراني(Ahmed Saadaoui, 2001, p.19–23 ، Paul Sebag, 1989 p.7–10). وعلى امتداد سبعة وعشرين سنة أقام يوسف داي عدداً كبيرا من المنشآت العمرانية والمعمارية التي أشادت بها المصادر التاريخية والتي لا يزال أغلبها قائما إلى اليوم. ويشير ابن أبي دينار إلى ذلك بقوله: «وفي أيام يوسف داي تحضّرت البلاد وكثرت عمارتها [...] وساعدته الأيام بالغنائم من البحر والهناء في البر فبنيت في أيامه عدة أماكن في المدينة منها سوق الترك [...] وبنى الجامع المشهور به[...] وبنى بإيزائه مدرسة تعرف به أيضا[...] وبنى الميضأة التي تحت القهوة ينتفع بها كثير من الناس وكذلك القهوة التي فوق الميضأة وجاءت من أحسن ما يكون وجعلها وقفا، وبنى السوق الذي به الجرابة[...] وكذلك الحمام القريب من السوق المذكور وبنى عدة فنادق لسكنى طائفة اللونده، وكذلك السوق الذي يباع فيه الرقيق من السودان وغيرهم ويقال له البركة وهي من أجمل الأسواق، وكذلك فتح باب بنات بعدما كان مسدودا وبوّبه وجعل فيه عدة حوانيت فجاء من أحفل الأسواق وبنى قريبا منه سوق يباع فيه الغزل»(ابن أبي دينار، 1967، ص. 206–205). كما أصلح الحنايا وأجرى السقايات لمدينة تونس (الوزير السرّاج، ج.2، ص. 352). وحملت هذه الانجازات بذور الحضارة العثمانية وملامحها، والتي لا نزال نرى بعض شواهدها ماثلة إلى اليوم. ويؤكد ذلك الدور الذي اضطلعت به التيارات السياسية الجديدة، وما كانت تحمله من تأثيرات محددة في تغيير ملامح الفن السائد وتوجيهه في إطار جديد. الأمر الذي

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

أدى إلى وجود مدارس فنية عديدة داخل نطاق ميزت المرحلة الجديدة. وقد كانت العمارة العثمانية بمدينة تونس على قدر كبير من الأهمية. وقد أتى مصنف الأستاذ أحمد سعداوي على جلّها (Ahmed Saadaoui,2001). واهتمّ هؤلاء بالأبنية الوقفية بشكل رئيس، ولهذا قاموا بمحاكاة النموذج المعماري السائد في عاصمة الخلافة ومحاولة نقله لمركز الايالة بيد أن ذلك لا يعني التطابق والتماثل المطلق. فلم يخرج هذا التمثّل الجديد للعمارة عن الإطار العام للعمارة المحلية الموروثة عن الفترة الحفصية أساسا. ولم يخفِ اشتراك العناصر المحلية مع الوافد الجديد، بل بقيت هذه العناصر واضحة وامتزجت أحيانًا مع الأسلوب الجديد بطريقة متناغمة وجميلة. فقد أسهمت الأذواق والنزعات الفردية، وكذلك التقاليد الموروثة ومواد البناء المتوافرة في تكوينها مما ساهم في الحفاظ على مبادئها الأساسية. وكانت الحمامات العامة والدور والقصور والجوامع أكثر الأبنية حضورًا، ويلاحظ أنها أصبحت أكثر اتساعًا وراحة، وازداد الاهتمام بالمظهر الداخلي من باحات وغرف، في حين كانت الواجهات الخارجية بسيطة وصمّاء في أغلبها على عادة أهل تونس.

لقد استفاد الحكام العثمانيين الأوائل في تونس وخاصة يوسف داي، إضافة إلى استتباب الأمن وارتفاع مداخيل الدولة واستدامة حكمه، من قدوم وفود الأندلسيين الذين استقبلهم أهل تونس في سنة 1017هـ/1608م و1018هـ/1609م بحفاوة. ورخّص لهم عثمان داي في بناء القرى والمداشر حول مدينة تونس. ويعد ذلك نتيجة سياسة محكمة ومدروسة من طرف أصحاب السلطة آنذاك. فقد كانت الإيالة تعاني من قلّة السكان والعمران نتيجة ما حلّ بالبلاد من جوائح وطاعون. ولم يبق في البلاد سوى فئات منعزلة ومشتّتة ومناطق عمرانية قليلة (محمد مقديش، 1993، ج.2، ص. 89 – 90.). وقد وصف ابن أبي دينار ذلك بقوله: «في أيامه (عثمان داي) كان الفناء الأعظم وذلك في سنة ثلاث عشرة وأربع عشرة بعد الألف وهو مشهور بين أهل الحضرة بحيث اجتمعت ثلاث مسائل الوباء والغلاء وتغيير السكة في زمان واحد فكان أهل تونس يرون هذه الأمور من أعظم شيء حلّ بهم» (ابن أبي دينار، 1967، ص. 226 – 228.).

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

يبدو أنّ عثمان قد اغتنم فرصة قدومهم لمحو آثار الخراب والفناء التي حلّت بالبلاد ومن هذا المنطلق سهّل لهم الوفود والاستقرار. فسنّ قوانين منها إلغاؤه الأداء المفروض على إرساء السفن الحاملة للجالية الأندلسية دون غيرها: «كانوا خلقا كثيرا فأوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرّق ضعفاؤهم على الناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا» (ابن أبي دينار، 1967، ص. 204.). وعمد إلى إقطاعهم المناطق المحيطة بالحاضرة. واستقر الفلاحون منهم في سهول وادي مجردة «فاشتروا «الهناشير» وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا في عدة أماكن ومن بلدانهم المشهورة سليمان وبلّي ونيانو وقرنبالية وتركي والجديدة (...) وغير ذلك بحيث تكون عدتها أزيد من عشرين بلدا» (ابن أبي دينار، 1967، ص. 204).

وبعد هذا الدور المؤسس للنظام والعباد بدأت تظهر ملامح عمارة جديدة وأصبح النتاج الفني أكثر نضوجًا. فقد أثر الوافدون الجدد في جميع شؤون البلاد تأثيرا عميقا، وتركوا طابعا فنيا ومعماريا غنيا من أبرز معالمه بعض الديار الموجودة في المدينة العتيقة بتونس إضافة إلى بعض الجوامع والزوايا والمدارس والحمامات. وقد واجه الحضور الأندلسي في فن العمارة والزخرفة أنماطا مركبة وتشكيلات متنوّعة تكامل معها أحيانا وانصهر فيها أخرى. وبدأت الأصول المقتبسة من الفترات السابقة بالتحوّل تدريجيا. ومع استتباب الأمر ليوسف داي واستقرار البلاد واستدامة حكمه انتقل الاهتمام إلى ظاهر مدينة تونس فكان تشييد قنطرة الباطان وبناء برج يوسف داي فاتحة طور معماري وعمراني جديد انفتح بمقتضاه البناء والعمارة على أساليب متعددة فرضتها تدخلات المعماريين الأجانب في بناء بعض المنشآت العامة والخاصة.

II - بناء برج يوسف داي خلال القرن السابع عشر: نحو استحداث مجال جديد للمنتزهات الرسمية

امتدت المنتزهات الرسمية للسلاطين الحفصيين وصفوة حاشيتهم على مناطق قريبة جدا من مدينة تونس حيث كان أدناها، رأس الطابية، يوجد على مرمى حجر

من القصبة فلم يكن يبعد عنها سوى ثلاثة أميال شرقا. ولم يزد أقصاها وهو قصر العبدلية عن عشرين ميلا شمالا (بية عبيدي، 2006، ص. 208.، Jacques Revault, 1974, p.55-72). في حين لم تتجاوز منتزهاتهم من جهة الغرب العشرة أميال وكان أقصاها روض السناجرة بجهة منوبة (بية عبيدي، 2010، ص.47-46.). ونلاحظ في هذا الصدد أن هذه المتنزهات الحفصية بقيت على حالها تقريباً حتى مطالع القرن السابع عشر بحيث لم يزد عددها أبداً على امتداد ما يقارب نصف قرن من الحكم العثماني مما يندرج بشكل أو بآخر في مصاعب هذا الحكم في بداياته. وقد تخطّى يوسف داي هذا المجال التقليدي الضيق وتوغّل في اتجاه الغرب ليتسع بذلك مجال النزهة الرسمية ويتجدد وفق معايير جديدة. (صورة رقم 1).

1 - إشكالية الموقع والتسمية

يعرف هذا البرج ببرج يوسف داي بالجديدة وذلك نسبة لهنشير (يستعمل هذا اللفظ للإشارة إلى أراضي ريفية شاسعة وممتدة وتستغل للزارعة والغراسة) الجديدة الذي كان يملكه الداي المذكور والذي يتكوّن بدوره من عدة هناشر ومواضع مختلفة (أ.م.ع. ملف 5915.). ونتبيّن من خلال رسم الحبس الذي عقده يوسف داي لفائدة قنطرة البطان وباقي أبنيتها أن هنشير الجديدة الذي حبس على مصالح هذه القنطرة يتكوّن من هنشير مرّة، هنشير الحثرمين، هنشير بن عطية، هنشير بن نفيسة، هنشير القنطرة، هنشير درقيش وهنشير الزويتينة (أ.م.ع. ملف5915).(صورة رقم 2).

ويقع البرج وجميع ملاحقه والقنطرة ومخازن الشاشية بهنشير درقيش من هنشير الجديدة بالمنطقة المعروفة بالبطان التي توجد على الضفة اليمنى لنهر مجردة على مستوى أربعة أميال جنوب مدينة طبربة على الطريق التي تفصلها عن مدينة الجديدة. وتبعد عن مدينة تونس حوالي خمسة وثلاثين كيلومتر غربا. ويحتوي هذا الملك على أرض محترثة وجبل وغابة وشعراء وبناءات مختلفة وواحد وتسعين موضع زيتون (أ.م.ع. ملف 3649). ويمتد على ألف هكتار. ويحده جهة القبلة بانحراف يسير للغرب هنشير الجربي وهنشير الحثرمين لورثة السايس

وورثة الهمامي، وشرقا هنشير ثليث من أوقاف دار التكية بتونس ووادي مجردة وفي الزاوية المنبثقة من اتصال هنشير ثليث بوادي مجردة يوجد معمل الملف والسانية التي بإزائه ومخازن الشاشية، وجوفا غابة زيتون هنشير لورثة الحاج عبد الملك القفال ومن غربيه أرض بيضاء تعرف بوادي بوذياب وغربا هنشير الزويتينة لعدة مالكين. ويتكوّن هذا الهنشير من أراضي قابلة للحرث وغابة وجبال وبعض أحواش ودشرة. كما يتبعه واحد وتسعون موضعا مشجرا زيتونا (الرائد الرسمي 19 ديسمبر 1892).

كما يحتوي هذا الهنشير على أربع عيون بعمق اثنا عشر متر وقع استغلالها لتهيئة أربعة آبار (بثينة فرج، 2006، ص.22). وقد قام يوسف داي بتحبيسه مع عدة هناشر وأملاك مختلفة على مصالح القنطرة والبرج (أ.و.ت. دفتر 3992. ، أحمد سعداوي، 2011، ص.463-461.). انتقل هذا الملك بعد وفاة يوسف داي لابنه أحمد شلبي الذي باعه لمحمد الحفصي لينتقل بعد ذلك لمراد الثاني الذي أعاد توقيفه من جديد على ذريته.

بعد أفول الدولة المرادية وتلاشي سلطانها دخل هذا الهنشير ضمن أملاك البايات الحسينين. وقد أفرد هنشير درقيش عن هنشير الجديدة، على غرار عدة هناشر أخرى، في تاريخ لم نتمكن حاليا من تحديده بدقة، ونفترض أن ذلك تمّ على الأقل في ولاية محمود باي (1824-1814) الذي ورّثه ابنه حسين باي (أ.م.ع. ملف 1310، ملف 3649.). استنزله حميدة بن عبد الرحمان بن عياد مدة من الزمن (أ.م.ع. ملف5915.). وبمقتضى عقد مؤرخ في 18 ديسمبر 1888 باع حسين باي هذا الهنشير لمحمد الهادي بن محمد العربي زروق الشريف بخمسة وسبعين ألف ريال. واستثني من البيع النصف الشايع منه والمشجر زيتونا والذي يحتوي على سواني (السانية هي قطعة أرض تعتمد في الزراعات السقوية والأشجار المثمرة) وأحواش (كلمة الحوش وجمعها أحواش تستخدم للإشارة لمنازل ريفية متواضعة. وهي تستخدم إلى اليوم بنفس المعنى. كما وردت في في رسوم الأحباس وعقود الملكية على هذا النحو وهو ما دفعنا للاحتفاظ بها واستعمالها

في نفس السياق) ودشرة (الدشرة لفظ يستخدم للإشارة لتجمع سكني ريفي يتكون من عدة أحواش. ولا يزال بستخدم بنفس المعنى) درقيش. ولم يشمل البيع أيضا فبريكة الملف (الفبريكة هي تسمية لمصنع القماش بالبطان تستخدم منذ انشائه في 1842) ومخازن السانية وسانية الفبريكة بوصفها جزء من أملاك الدولة (الرائد الرسمي 19 ديسمبر 1892). كما استثني من البيع أيضا الجبانة والزاوية والمندرة والأحواش. وقام المالك الجديد ببيع الهنشير المذكور بمقتضى عقد مؤرخ في شهر فيفري 1891 مقابل اثنان وستون ألف فرنك لفرانسوا لويس جيرار *François louis Girard* وزوجته ماري شرديني *Marie Chardigny* (أ.م.ع. ملف 1310). وشمل عقد البيع الهنشير والواحد والتسعين موضعا المذكورة آنفا والواقعة على الضفة اليمنى لوادي مجردة ماعدا القطع من 44 إلى 56 التي تقع على الضفة اليسرى وهي في ملك الشاري بمقتضى الإشاعة. تقدم بعد ذلك الزوجان في 30 نوفمبر 1891 بمطلب لمصالح الإدارة العقارية لتسجيل هذا العقار مناصفة بينهما(الرائد الرسمي 19 ديسمبر 1892). ونتبيّن من خلال تفحّص ما سبق أن اختيار هذا الموقع في حد ذاته يعد ضربا من ضروب التجديد. وتطرح مسألة اختيار الموقع الجغرافي ومن ثمة إشكالية تغيير التسمية، من درقيش إلى الباطان، ضمن واقع التحولات السياسية والاجتماعية لتلك الفترة. فلا شك أن الأندلسيين قد لعبوا دورا أساسيا في اختيار الموقع لاستقرارهم وبناء السد لتعزيز نشاطهم الفلاحي والحرفي. وقد جاءت التسمية الجديدة «الباطان»[1] (أحمد سعداوي، 2001، ص. 461. – توفيق بشروش، 1999، ص. 72. ، *Jean-Paul Pascual*, 1983, p.53) تعبيرا عن الوظيفة الأساسية للسد وهو تلبيد الشاشية لتتراجع منذ ذلك التاريخ تسمية «هنشير درقيش» ليتم تعميم الاسم الجديد الذي لا يزال متداولا ليشمل كل التجمع السكاني بالمكان. وقد أضفى ذلك بعدا استراتيجيا وحيويا للمكان زاد من أهميته وخطورته في نفس الوقت بالقياس إلى قربه من مدينة تونس. ويبدو أن السلطة السياسية لم تشأ أن تنأى بنفسها عن هذا الواقع وأن تبقى

1 الباطان كلمة مأخوذة عن الإسبانية (batan) وتعني طاحونة مائية تستعمل لغسل الشاشية، وهي تقنية اسبانية أدخلها البلاد المهاجرون الأندلسيون ووصلت حتى بلاد الشام».

على هامش تطوراته المحدثة والمتوقعة. وارتأت أن يكون حضورها وفق آلية غير مألوفة لمثل هذه الغاية. ويعكس ذلك الرغبة في التوغّل في المجال ومراقبة الفئات الاجتماعية الجديدة التي استقرت بالمكان. وعادة ما تحرص مؤسسة الحكم أو الدولة في تعاملها مع المجال على المزاوجة في الممارسة بين الأهداف المادية والرمزية لغاية إقناع القوى المجتمعية المترددة، وتدجين القوى المسالمة، وضرب متخيلات الخصوم أو القوى الرافضة والمتمردة. وسيصبح انطلاقا من هذا التاريخ للمنتزهات صفة جديدة هي تمثيل الدولة خارج مدينة تونس وهو ما يرقى بها إلى مصاف مؤسسة حكم وإحدى الأدوات الرئيسية لتجسيد بنيات النفوذ والقوة وتغطية هنات ممارسة الوجود المادي أو المؤسساتي الفعلي خارج مدينة تونس والذي كان شبه معدوم خلال تلك الفترة. ولا يخلو ذلك من الدلالات والرموز، بحمولتها الثقافية وإمكاناتها الردعية وأبعادها الظاهرة والخفية. لتصبح التنقلات الموسمية لهذا المكان والمراسيم المتبعة في مختلف مراحل تحركها والنظام الخاص بهندسة بناء الأبراج والقصور الموسمية والمنتزهات عموما نمطا للتواصل بين الحاكم ومجال حكمه، كإحدى أهم الركائز التي اعتمد عليها الحكام لممارسة شؤون الحكم. وتعد هذه المواكب في حد ذاتها منظومة ثقافية تتداخل في تحديد هويتها وتشخيص الآليات المتحكمة في تنظيمها والتي تعكس الهيبة، وتمثل ثقل الحاكم ودولته وبذخه بالإضافة إلى توظيف الوسائل الرمزية المتنقلة بصفتها أدوات موازية للوسائل الرمزية الثابتة المتجسدة في البناء والتشييد والترميم. وسيتعزز هذا المنحى أكثر مع البايات المراديين ومن بعدهم الحسنيين الذين سيعتمدون على ذات الآلية في التعامل مع المجال في دواخل البلاد.

ويتجلّى المظهر الثاني للتجديد في ارتباط مقر النزهة الجديد بمنشآت عامة وأخرى حرفية واقتصادية. ونلمس من ذلك أننا أمام ضرب جديد من العمارة تنتمي لصنف المركبات المعمارية التي سبق وسجلت ظهورها داخل مدينة تونس مع مركب يوسف داي(Ahmed Saadaoui, 2001, p.19-57). وتتميز هذه المركبات باشتمالها على منشآت معمارية ذات وظائف مختلفة. ليصبح بذلك برج يوسف داي أول مركب معماري عثماني يظهر بأحواز مدينة تونس بصبغته

السياسية الأمنية من خلال بعد المراقبة، وصبغته الاقتصادية، عن طريق إشرافه على استغلال مساحات واسعة.

2 - أثر بناء القنطرة في تحويل المكان إلى متنزّه

برزت أهمية هذا الموقع مع استقرار الأندلسيين فيه بأمر من مالكه يوسف داي الذي أمرهم بتعميره و قد نالت المنطقة إعجاب الوافدين الجدد نظرا لخصائصها الطبيعية الملائمة لممارسة النشاط الفلاحي، وبناءا على ذلك أشاروا على يوسف داي بضرورة تشييد القنطرة-السد التي تعرف اختصارا بالباطان والتي من أهم وظائفها تحسين استغلال مياه نهر مجردة وتشغيل ورشة صناعة الشاشية بالمكان. وكان لبناء القنطرة أثر كبير في توجيه الأنظار إلى موقعها وإلى خصائصه المميّزة التي تعين على الراحة، الأمر الذي وفّر نوعا من الجذب وفرصا للاستقرار ساعدت على التوطن فيه والذي ما لبث بعدئذ أن تحول إلى تجمع سكاني كان نواة لتشكل مدينة الباطان فيما بعد.

ويعتبر ابن أبي دينار أول من ذكرها في معرض حديثه عن علي باي الذي أقام ثلاثة أيام بهذا البرج في رجب من سنة 1092: «وهذه القنطرة من بناء جده الإمام المرحوم برحمة الله تعالى صاحب الخيرات والصدقات أبي المحاسن يوسف داي رحمه الله بناها من ماله احتسابا لله لينتفع المسلمون بها أنفق عليها أموالا جمة وكان بناؤها سنة خمس وعشرين وألف فجاءت من أحسن ما يكون وجعل بها أرحاء تدور بالماء وبنى بها برجا لطيفا» (ابن أبي دينار، 1967، ص. 284.). ثم أضاف في معرض حديثه عن إنجازات يوسف داي: «ومن خيراته بناؤه القنطرة العجيبة التي على وادي مجردة من ناحية بلد طبربة وجاءت من أجمل القناطر وهي اليوم من أعجب المنتزهات التي لها ذكر بين الناس» (ابن أبي دينار، 1967، ص. 207). ونلاحظ جليّا أنه وصف القنطرة بالمنتزه وفي ذلك إشارة بليغة إلى دورها في تغيير وظيفة المكان. فقد أورد: «وحيث ذكرت القنطرة وجب أن نذكر بعض محاسنها لأنها من المنتزهات الغريبة في الإقليم الإفريقي» (ابن أبي دينار، 1967، ص. 284). مما يجعل علاقتها ببناء البرج جدلية فلولا بناءها لما بني البرج

ولما بعث هذا المنتزه الذي يعد مثالا فريدا في البلاد. وقد نظم، إضافة لما ورد في وصف القنطرة، قصيدة تحوي أربعة وعشرين بيتا لوصف محاسنها ووصف حسن بنائها وبديع صنعها (ابن أبي دينار، 1967، ص. 287–286.). ثم أعاد الوزير السراج ذكرها على النحو الموصوف (الوزير السرّاج، 1984، ج.2، ص. 354). وتعتبر هذه القنطرة واحدة من مجموع الأربع قناطر التي أحدثها الموريسكيون على مجردة (L. Poinssot, 1941, p. 321 – 333.). وقد قام يوسف داي بتوقيف عدة أملاك على مصالح هذه القنطرة (أحمد السعداوي، 2011، ص. 461). ا الحبس على ما يلي:

- البطّان الجوفي المشتمل على دولابين المعد لغسل الشواشي وملف الأندلس المحدث البناء بشاطئ وادي مجردة من شرقيّه كان على ملك أحمد بن يوسف داي.
- الفرن شرقي الباب المعدّ لطحن الطعام وبه دولاب واحد ملاصق له من شرقيه يحدّهما قبلة حيث يفرغ ماء الغسالة وشرقا طريق حيث يوجد باب الفرن وآبار هناك وجوفا قنطرة الوادي المعروفة بالمرحوم يوسف داي كذلك.
- دار كائنة بزغوان قرب الجامع الكبير على ملك محمد الحفصي المرادي.
- هنشير بشوّاط جوفي وادي مجردة على ملك محمد الحفصي المرادي.

وتتصف هذه القنطرة–السدّ بأبعادها المترامية إذ يبلغ طولها 114 متر. ترتكز على قاعدة يبلغ سمكها خمسة أمتار وعرضها 30 مترا عليها أربعة شلالات يبلغ ارتفاع الواحد منها 3.85 متر. وتبرز على هذه القاعدة تسعة عشر دعامة تفصل بين الممرّات أو البوابات (يذكر المزي 24 قوسا تفصلها 23 فاصلة، 1983، ص. 15، ويذكر القفصي 20 قوسا تفصلها 19 فاصلة، 1994، ص. 48.) وقد عقدت عليها أقواس يمتد فوقها الجسر وشدّ الهيكل بأكمله إلى جدار يمتد فوق مسافات هامة داخل الغابة مدعوم بمتاريس من بناء. وغمر جلّه بالتراب ليزداد السدّ ثباتا. ووضع لكل ممرّ أو قوس باب خشبي بارتفاع خمسة أمتار وعرض ثلاثة أمتار. أدخل

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

في الفاصلتين التي تكتنفانه بفضل ممرّ حفر فيهما بعرض نصف متر. كما بنيت ممرات أعلى وأسفل الأبواب الخشبية تمكّن المشرفين من رفعها وإنزالها عند الحاجة (المزي، د. ت.، ص. 88.). وقع في بناء السدّ على بقايا المعالم القديمة وقد ذكر بيسونال Peyssonnel أنّ أجزاء من المسرح قد استخدمت لبناء قنطرة البطان وتشير النقيشة التي عثر عليها أنّ أجزاء من السدّ أخذت من معالم قديمة بمدينة ثوبوربو مينوس Thuburbo Minus ولقد وقع الاعتماد أيضا على مواد متأتّية من مدينة ثبيوكا Thibiuca وهو ما تثبته النقيشة التي نشرها تيسوTissot في 1293هـ/1876م وقد عثر عليها في إحدى قواعد السدّ (Corpus des inscriptions latines, VIII, 1174). (صورة رقم 3).

بعد وفاة يوسف داي ظلّت القنطرة محل اهتمام ورثته. وقد أشاد ابن أ دينار وغيره من المؤرخين بما أتوه للحفاظ عليها قائمة: «ولما سار إلى رحمة الله تولّع بها خادمه نصر الطواشي فزاد فيها عدة بساتين ومن بعده تولّع بها المرحوم أحمد شلبي وشيد فيها المنارة الرفيعة واهتم بها غاية الاهتمام حتى جاءت صنع الله. ولما سار إلى رحمة ربه ووقعت الفتن كاد أن يتلاشى حالها فتداركها بعزمه وحزمه المكرم علي باي فزادت محاسنها على ما كانت من قبل، وصارت من الأماكن التي يضرب بها المثل، وغدت أحسن مما كانت من قبل» (ابن أبي دينار،1967، ص. 285.).

وقد جدد بنائها بعد ذلك محمد باي (1086هـ/1675م إلى 1108هـ/1696م) وحسّن مبانيها. وقد وصفها ابن أبي دينار في هيئتها الجديدة بقوله: «هذه القنطرة ومنازهها والوادي والغدير، كيف لا تفتخر، هذه البقعة وهي ذات المنارة والقباب التي حيطانها ذات العماد، وشيدت معالمها وتزخرفت بالنقوش المذهبة حتى قيل لم يخلق مثلها في البلاد، وصنعت العجائب على حافتي الوادي [...] وكان هذا الدولاب الذي أحدث بالقنطرة على طابع مجردة أحسن مما عمل في حماة وأولى،[...] وهذه الأبنية التي تمت محاسنها تذهب عن قلب ناظرها الوحشة، فلو رآها أنو شروان لقال لصاحبها أنت أنا وهذه قصور الدهشة، فمن نظر إلى تلك

التماثيل المصورة حكم بذوقه أن ليس لها مثيل [...] وبهاء فردوسها يشوق ناظره إلى فردوس الجنة، وبه من الفواكه العجيبة ما لا يوصف، [...] وقد تنزهت في تلك المحاسن، ونظرت إلى عذب الماء الذي هو غير آسن، وقد جرت جداوله ودخلت البستان فصار مروجا وتطلعت إلى البرج العالي المطل عليه فتلوت تبارك الذي جعل في السماء بروجا، ونظرت إلى الكشك الذي في صدر الايوان وهو مطل على الخليج، فعاينت من نقوشه وصناعته التي اوتيت من كل حسن بهيج» (ابن أبي دينار، 1967، ص. 285). وكان المشرف على إعادة تجديد هذه الأبنية خلال هذه الفترة هو عبد الرحمان الرفرافي (ابن أبي دينار، 1967، ص. 287.). وتمّ تجديدها ثانية خلال ولاية حسين بن علي تركي (A. Saadaoui, 2001, p. – 108. أحمد سعداوي، 2011، ص. 465–461). ولعبت القنطرة السدّ بالإضافة إلى ذلك دورا هاما في إحياء المنطقة وتطوير الغراسات التي أصبح من السهل ريّها عدة مرات في السنة بعد أن كان من الضروري انتظار الفيضان الموسمي للتمكّن من سقيها عند ارتفاع منسوب المياه بالوادي (بثينة بن فرج، 2006، ص. 30–28). كما سهّلت أيضا نقل وتوزيع المنتوجات الفلاحية والصناعية. فقد كانت الشاشية تغسل وتبطّن بمصنع التلبيد الذي قرب الوادي ومن الواضح أنّ إنشاء المصنع قرب السدّ مدروس جيدا بحيث يضمن استغلال قوّة المياه والطريق الممتدّ فوقه. (صورة رقم 4). وفي الفترة العثمانية المتأخرة لاقى الموقع اهتماما جديدا فتم تجديد البناءات وتوسيعها. واكتسب قيمة إضافية خلال القرن التاسع عشر مع تشييد مصنع الملف بالمكان ليتحول برج يوسف إلى مركب صناعي. (صورة رقم 5).

III - خصائص التشكيل والتكوين المعماري لبرج يوسف داي

يطل البرج على وادي مجردة ويشرف على قنطرة البطان ومصنع الشاشية. ويعد هذا البرج من بين أهم الآثار المعمارية ليوسف داي خارج أسوار مدينة تونس. وتشير المصادر المكتوبة والوثائق الأرشيفية بوضوح لتاريخ تأسيس القنطرة وإنشاء البرج المزامن والذي انتهت أشغاله سنة 1622. وانتقلت ملكيته على غرار الهنشير

المحتضن له عدة مرات وملكه البايات المراديين ومن بعدهم الحسينيين وبعض أعوانهم (أ.م.ع. ملف 5915، ملف 3649. أحمد السعداوي،2011، ص.462). ولا تورد المصادر التاريخية المكتوبة الكثير سوى أوصاف عامة للبرج لا تسمح لنا بتمييز جميع تفاصيله الأصلية خلال هذه الفترة. ومن أوصافه ما أورده ابن أبي دينار « وكان عليها برج في حياته ثم زاد فيه من بعده مولاه الفتى نصر آغة ثم تولّع به ولده المرحوم أحمد شلبي وضخمه ثم صار من بعده لحفيده أبي الحسن علي باي فزاده ضخامة إلى أن صار يضرب به المثل» (ابن أبي دينار، 1967، ص. 207). ويورد الوزير السراج وصفا مماثلا يخلو من الدقة ولا يمكننا من تبيّن مكونات البناء الأصلية على وجه التحديد (الوزير السرّاج،1984، ص. 354). وتتضح صورة البرج من خلال مصادر القرن التاسع عشر. فقد وصفه بيليسيي عند مروره بالجهة سنة 1842 (E . Pellissier, 1980, p.22). وأورد أن البرج أصبح يعرف ببرج سيدي محمد باي وهو في حالة خراب. كما أخبرنا أن مياه مجردة كانت تصل البرج عن طريق قناة فخارية لا تزال آثارها ظاهرة. كما أشار إلى تعطّل السد عن العمل واختفاء صماماته الحجرية (E. Pellissier, 1980, p.23). ويتأكد لنا هذا الوصف من خلال عقد استنزال حميدة بن عياد للمكان. فقد ورد فيه: «البرج المذكور أعلاه يشتمل على خمسة بيوت جلّها من غير أبواب ودويرية ذات ثلاثة أبواب من غير أبواب وداموس لخزن التبن وجميع البيوت المذكورة والدويرية من غير فرشة (منزوعة البلاط) وغطاء سقف سقيف البرج المذكور بعضه متداع والعلو المذكور يشتمل على ثلاثة بيوت ودويرية ومطبخه وطالع دروج للسطح به بيتان وأن طالع دروج العلو يحتاج للإصلاح ودمس البيت الغربي منه يحتاج للإصلاح وطالع دروج السطح والبيبان اللذان به تحتاج للإصلاح والبيت القبلي الملاصق للبرج المذكور من غير باب والفندق والحوش المذكوران، والفندق المذكور به برطالان متداعيان وملاصق له أربعة بيوت وأن المخزنين الجوفيين من غير أبواب والناعورة الملاصقة لهما بعضها متداعي ويحتاج للإصلاح وليس بها دوران وقديمة لا نفع بها والناعورة التي جوار الأولى جلّها ساقط والداموس الغربي المذكور من غير باب ويحتاج للإصلاح والسبالة المذكورة من غير خزنة

وتحتاج للإصلاح» (أ.م.ع. ملف 5915، ملف 3649). ويبدو من خلال ما تقدم أن البرج قد عانى من حالة إهمال طويل نقص جرائها عمرانه. واستعاد الموقع بعض من أهميته خلال ولاية أحمد باشا باي الذي شيّد به فبريكة الملف.

لتسنّى لنا إحصاء بعض ملاحق البرج من خلال مطلب تسجيل هذا الملك قدم لدفتر خانة الأملاك العقارية سنة 1896. فقد كان يتبع البرج إضافة لما ذكر: «طاحونة الحافة اليسرى من مجردة وهي على السد ومنحة أخذ الماء على الأبد وقعت بأمر علي مؤرخ في جمادى الأولى سنة 1261، مخزن الخمر الملاصق للطاحونة من الجهة الشرقية، بناء جوفي وتجاه الطاحونة يشتمل على فندق وحانوت سوقي وقهوة وروى قديم ومخزن للبقر وبرطال وكوشة حذو القنطرة المبنية على مجردة، دار كبرى للسكنى على الحافة اليمنى حذو مخرج القنطرة وملاصق لها مخازن وروى وبيوت للسكنى ومخازن للبقر وبراطل ملاصقة للبناء المذكور من الجهة الجوفية الغربية، معصرة، مكانان لأخذ الماء من خمسة منها أحدهما به طرنبه قديمة من مدة مديدة وذلك على ما بتوجه مؤرخ في 6 رجب 1300/1882 على الحافة اليمنى من الباطان» (الرائد الرسمي، 14 مارس 1896). وقد حوّل البرج وفبريكة الملف الملاصقة له وباقي ملاحقه إلى ثكنة عسكرية خلال فترة الحماية مما اتلف الكثير من خصائصه المعمارية الأصلية. كما شغل بعد الاستقلال عدة وظائف وهو حاليا يحتضن المؤسسة الوطنية لتحسين وتجويد الخيل. وقد طال الخراب هذا البرج وأتلف أغلب مكوناته نتيجة الإهمال وعدم الصيانة وعدم توافق الوظائف التي اضطلع بها مع هيكلته. (صورة رقم 6).

يتخذ هذا البرج إجمالا شكلا مربعا وهو لا يختلف بذلك عن القصور والدور المحلية من ناحية التخطيط والشكل العمراني القائم على مبدأ التربيع والسور المرتفع الذي يحيط به والدهليز الطويل الذي ينفتح على الفناء الداخلي المكشوف الواسع الذي تشرف عليه الأروقة المسقوفة التي تتقدم الغرف والقاعات والموزّعة على طابقين. ويشتمل على مجموعتين بنائيتين متميزتين هما: قسم السكن، وقسم الملاحق المختلفة: مخازن، إسطبلات، فندق، مقهى وحوانيت.

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

وتتميّز واجهات هذا القصر ببساطة معمارها. وهي تخلو تماما من الزينة مما أضفي عليها صارمة زائدة مع المشهد الطبيعي المحيط بالبرج. وتتجه الواجهة الأمامية إلى القبلة حيث يوجد مدخل البرج المقوّس الذي ينتهي على مستوى الطابق الأول بظلّة مدببة مكسوة بالقرميد الأحمر. ويوجد على جانبي هذه البوابة مدخلين صغيرين مستطيلين مقوسين ويشكل الجميع ما يشبه الرواق المسقوف. وتزينها عدة شبابيك مستطيلة الشكل. وتعتبر الواجهة الجوفية الأكثر تواضعا من الناحية المعمارية. فلا يوجد بها بالإضافة إلى جدران الخلفية المشرفة على الوادي سوى فتحات نوافذ الطابق العلوي المستطيلة المسيّجة بمشابك الحديد. (صورة رقم7) و (صورة رقم 8)

ويقع الوصول حاليا إلى مدخل البرج عبر مدخل فبريكة الملف التي غطت الواجهة الرئيسية للبرج تماما. يتخذ المدخل شكل رواق بثلاثة أقواس نصف دائرية تغطيه أقباء متقاطعة. وتعلوه ثلاث نوافذ مستطيلة الشكل ذات دفات خشبية مشغولة بإتقان. تليه دريبة مبلطة بالكذّال وتغطيها أقباء متقاطعة. تحتل جهتها الشمالية غرفة مستطيلة الشكل مسقوفة بقبو طولي ومشفوعة بمقصورة تميل إلى الاستطالة تعلوها عقود متقاطعة. ويحتل الجهة الجنوبية غرفة مربعة الشكل تعلوها أقباء متقاطعة. ويبدو أنها كانت تستعمل كمخازن. تفضي هذه الدريبة إلى بهو طويل يمثّل انتقاليا بين الدريبة المذكورة آنفا والصحن الداخلي للبرج الذي تنتظم حوله مختلف وحدات البرج. (صورة رقم 9)

1 - الطابق الأرضي

يتكوّن الطابق السفلي من فناء غير متوازي الأضلاع وإنما يميل للتربيع وتتوسّطه أربع نخلات كانت فيما مضى تحيط بحوض ماء. وتتوزّع حوله خمسة غرف وعدة مخازن. ويتفق ذلك مع عدد الغرف المذكورة في وثيقة الانزال التي أشرنا إليها سابقا والتي تعود لمنتصف القرن التاسع عشر (أ.م.ع. ملف 3649).

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

وتواجه المدخل غرفة مستطيلة الشكل بدون مقاصر، يعلوها قبو طولي. تجاورها من الناحية الشرقية غرفة مماثلة مشفوعة بمقصورتين. ويتوسط الغرفتين مخزن ذي قبو طولي. ويجاورها من الناحية الغربية قبو طولي به مدارج تفضي «للعلّو الغربي». وقد بلطت جميع هذه الغرف بالرخام. ومنعتنا حالة الخراب التي عليها البرج في الوقت الراهن من تبيّن الزخارف الجصية التي تحدثت عنها المصادر. في حين لازالت تعلو جدرانها بعض مربعات خزفية.

ويوجد بالجهة الشرقية لهذه الساحة مجموعة من المخازن تجاورهم غرفة مستطيلة الشكل ذات قبو طولي. أما الجهة الشمالية فيتقدمها رواق بثلاثة أقواس تعلوه ثلاث نوافذ متماثلة تشرف على فضاء مسقوف بقبو برميلي يرتكز على أربعة أعمدة مستطيلة دون تيجان.

ويحتلّ الجهة الشمالية منه رواق بأربعة أقواس دائرية تتقدم الغرفة الرئيسية. تعلوه ستة نوافذ مستطيلة الشكل. تتكوّن هذه الغرفة من إيوان تعلوه قبة ترتكز على حنيات ركنية نصف دائرية مطلية باللون الأزرق وخالية من الزخرفة. زيّنت جدرانها بمربعات خزفية محلية ومستوردة. ويبدو أنها تعود إلى القرن التاسع عشر. وخلت الأجزاء العليا لهذه الجدران من كل مظاهر الزينة. وتضم هذه الغرفة مقصورتين جانبيتين. تقابل هذه الغرفة من الجهة الجنوبية أخرى مماثلة مربعة الشكل. تعلوها قبة كبيرة ترتكز على حنيات ركنية نصف دائرية بسيطة. ويجاور رواق الجهة الشمالية باب مقوس يفضي إلى مدارج الطابق العلوي. وتقع الملاحق في الجهة الجنوبية الغربية خارج البرج. وتضم عدة مخازن وغرف يبدو أنها كانت مخصصة لسكنى بعض العملة والخدم، بالإضافة إلى طاحونة ومسجد يتم استغلاله حاليا كمخزن للتبن. (صورة رقم 10).

2 - الطابق العلوي

يحتوي البرج على طابقين علويين جزئيين صغيرين. ويتكون كل طابق من عدة غرف متجاورة، ويمكن الانتقالُ بسهولة من أية غرفة إلى أخرى في الطابق الواحد

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

لأنها جميعاً ترتبط برواق طويل. يقع الأول في الركن الشمالي الشرقي. ويتكوّن من ثلاث غرف واحدة منفصلة واثنتين مدمجتين ومنافع. سقفت جميع الغرف بأقباء طولية لا زينة فيها. كذلك خلت الجدران من كل مظاهر الزخرفة. ويبدو أن هذه الغرف كانت مخصصة للنوم.

ويقع «العلوّ» الثاني في الركن الجنوبي الغربي. ويعتلي على مخازن الطابق السفلي المذكورة آنفا. ويتكوّن من أربعة غرف ومنافع. سقفت جميع الغرف بأقباء طولية على غرار العلو السابق. بلطت جميع هذه الغرف بالرخام في حين خلت جدرانها وأسقفها من الزخرف والزينة. كما اعتلى على المخازن الخارجية «علوّ» آخر يحتوي على ستة غرف ومنافع. (صورة رقم11).

وقد تأثر برج يوسف داي في مجمله بالنمطين والأندلسي والايطالي، إلا أن البصمة العثمانية بادية عليه، حيث اهتم المعماريون بزخرفته بالنقوش، واستخدموا خزف وبلاط ورخام، و صمموه بشكل هندسي غاية في الإتقان و الجمال. كما عرف البرج منذ إنشائه عدة أطوار تراوحت ما بين الإعمار والخراب وإعادة الإعمار والإصلاح والتجديد. كما اضطلع بعدة وظائف ومهام ساهمت في طمس معالمه الأصلية وتشويه تركيبته وإتلاف زينته وأغلب زخارفه التي لم يبقى منها سوى بعض الآثار التي تدلل على عظمته وتؤكد بعض ما ورد في المصادر حول هذا الجانب. وأعيد إحياؤه في أواسط القرن التاسع عشر عندما اختاره أحمد باشا باي (1837 – 1855) لبناء مصنع الملف. وكانت القنطرة وغابة الزياتين المجاورة له والسانية المحيطة به أهم ما يميزه بالإضافة إلى إطلالته على ضفاف مجردة مما جعله ذي طابع فريد بالمقارنة بالقصور الأخرى.

خاتمة:

يبسط هذا المعلم طورا هاما في تحوّل العمارة يتجلى فيها أسلوب التجديد مع استخدام العناصر المحلية لتظهر هذه العمارة بحلّة جديدة غير مألوفة وأكثر نضجا وأكثر وضوحا. تختلف عن العمارة الحفصية التي تتصف بالتحصين والتقشف.

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

وظهرت ملامح جديدة في النقوش الزخرفية جميعها، فضلا عن الهندسة والتخطيط. وقد انسجمت هذه التأثيرات الجديدة بشكل واضح مع العناصر المحلية وشكلت أنموذجًا معماريًا فريدًا، فهو عثماني لكونه من الإنتاج الذي أمر ببنائه الحكام الأتراك، ولكونه يحتوي على بعض الأشكال والعناصر التركية، وهو فن متأثر بالفن الأندلسي وبعض التأثر بالفن الإيطالي، ولكن الطابع المحلي المسيطر يميّزه عن الفنون العثمانية في جهات وبلدان أخرى على غرار مصر والشام. وتلك هي الإضافة التي تستند في جوهرها إلى أصول عمارة القصور والأبراج السكنية التي رُكِّزت في تونس الإيَالة العثمانيّة. فكانت الإضافة بتجلّي العمارة المدنية الحديثة والمنسوبة للأتراك بصفتها مظهراً مستحدثاً بدأ ينتشر في عاصمة الإيالة وضواحيها بصفة خاصة. وسيبرز أكثر في فترات تاريخية أخرى، ولاسيما في العهد المرادي ثم الحسيني.

كما يبرز المعلم أيضا تأثّر العمارة المدنية العثمانية بتونس المبكر والواضح بالفن الإيطالي في الصنائع الرقيقة والزخرفة، وذلك لأن الأتراك استعملوا طائفة من الأسرى «الطليان» ممن كانت لهم خبرة ومهارة في الصنائع الرقيقة والصنائع الزخرفية بالخصوص. وقد استعمل الأتراك، خلال القرن السابع عشر والقرون التي تليه، في بناءاتهم الكثير من المصنوعات المنتجة في إيطاليا، وخاصة المصنوعات الرخامية، واستعمال السواري الرخامية والتيجان والنافورات «المتمومة» المستوردة من إيطاليا، التي كلّما أقيمت في مكان ما، لاح عليها الانسجام والتوازن. ويعطينا ذلك لمحة واضحة عن مختلف التأثيرات التي أُدخلت على الأساليب الفنية المحلية، فامتزجت بها امتزاجاً لطيفاً التأثير الأندلسي، ثم التركي، ثم الإيطالي في فترات لاحقة.

ونشير أخيرا أن عمارة المنتزهات العثمانية في تونس تبقى أنموذجا رائعا للفن المعماريّ والزخرفي في امتزاج التقاليد المعمارية والفنية المحلية بالأساليب الخارجية المتنوّعة. وقد استطاعت الأساليب التقليدية التونسية المقتبسة من الأنماط الأندلسية أن تحافظ على مكانتها المرموقة في فنون العمارة وزخرفها خلال الفترة العثمانية رغم التأثير الأجنبي المتزايد.

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

ملحق الصور

صورة رقم 1 – صورة عامة للبرج

صورة رقم 2 – الواجهة الامامية والمدخل

صورة رقم 3 – المدخل الرئيسي للبرج

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

صورة رقم 4 – الواجهة الخلفية المشرفة على وادي مجردة

صورة رقم 5 – الفناء الداخلي

صورة رقم 6 – مدخل الغرفة الرئيسية

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

صورة رقم 7 – أيوان الغرفة الرئيسية

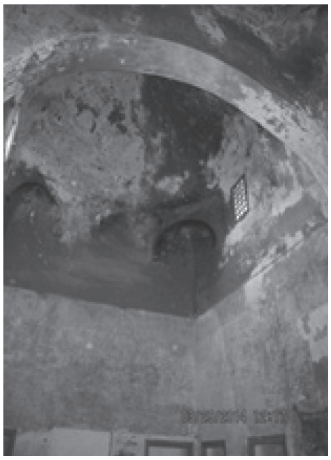

صورة رقم 8 – تفاصيل قبة الغرفة الرئيسية

صورة رقم 10+9 – احدى الغرف الطابق العلوي

صورة رقم 11 – الطاحونة

صورة رقم 12 – مخزن

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

المصادر والمراجع

1. الأرشيف الوطني التونسي، دفتر 3992.

2. أرشيف الملكية العقارية:

ملف رقم 5915

ملف رقم 3649

ملف رقم 1310

3.الرائد الرسمي: 14 مارس 1896، 19 ديسمبر 1896.

4. ابن أبي دينار، أبو عبد الله، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمّام، المكتبة العتيقة، تونس، 1967.

5. الوزير السراج، أبو عبد الله محمد، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984.

6. مقديش محمّد، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمّد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، 1993.

7. الإمام رشاد، «الأندلسيون في البلاد التونسية في منتصف القرن التاسع عشر من خلال الوثائق التونسية»، المجلة التاريخية المغربية، عدد 24-23، تونس، 1981، ص. 318-293.

8. أحمد السعداوي، تونس في القرن السابع عشر، وثائق الأوقاف في عهد الدايات والبايات المراديين، تونس، 2001.

9. بشروش توفيق، جمهورية الدايات في تونس 1675-1591، تونس، 1992.

10. بشروش توفيق، موسوعة مدينة تونس، مركز الدراسات والبحوث الإقتصادية والإجتماعية، تونس، 1999.

11. المزّي محمّد، طبربة أرض اللقاء بين العتمة والضياء، الدار المغاربية للطباعة والنشر، د. ت.

12. بثينة فرج، طبربة، المدينة الأندلسية العمارة والآثار، رسالة ماجستير، كلية الآداب منوبة، 2006.

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

13. Peyssonnel Jean André, Voyage dans la régence de Tunis et d'Alger, Paris, 1987.
14. Pellissier de Reynaud, Description de la régence de Tunis, Editions Bouslama, Tunis ,1980.
15. Saadaoui Ahmed, Tunis ville ottomane trois siècles d'urbanisme et d'architecture, Centre de Publication Universitaire, Tunis, 2001.
16. Bachrouch Taoufik, Formation sociale barbaresque et pouvoir à Tunis au XVIIème siècle, Faculté des Lettres, Tunis, 1977.
17. Poinssot Louis, « Le pont de Jedeïda », R. T., 1941, p. 321-333.
18. Pascual Jean-Paul, Damas à la fin du XVIe siècle d'après trois actes de waqf ottoman, IFID, Damas, 1983.
19. Sebag Paul, Tunis : Histoire d'une ville, Paris, Editions L'Harmattan, 1998.
20. Tunis au XVIIème, une cité barbaresque au temps de la course, Paris, Editions L'Harmattan, 1989.
21. Revault Jacques, «Aspects de l'élément andalous dans les palais et les demeures de Tunis», Etudes1, Madrid Tunis, 1973, p. 291-303.
22. Revault Jacques, Palais et demeures de Tunis au XVIè et XVIIè siècles, C.N.R.S., Paris, 1980.
23. Tayech Sameh, Reconversion du palais Ben Ayed en maison de cheval, PFE, ENAU, Tunis, 2000.

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016